تمهيد

عند ما عهد إلى لأول مرة بوضع أسئلة فى علم الأخلاق لطلبة كلية أصول الدين خطر لى هذا الخاطر :

كيف نمتحن الطلاب فى القواعد النظرية ، ولا نمتحنهم فى الأخلاق العملية حتى نقف على مبلغ حيازتهم للفضيلة واستعمالها ؟ ! !

استولى علىّ هذا الخاطر أحدث به نفسى ، وأعرضه على زملائى ، وأهيىء له أبنائى حتى أصبح عندى هو المبدأ الأساسى لنجاح الطالب .

ذهبت بهذا الخاطر إلى شيخ الكلية فأجابنى بأن هذا موجود بالفعل فى خانة السلوك » . . نعم هناك « خانة » مطبوعة فى أوراق الطالب بهذا الإسم غير أنى — على الأقل — من يوم أن طلبت العلم حتى الساعة لم أسمع عن طالب واحد نجح فى العلوم كلها ، أو بعضها ، وسقط فى السلوك .

فقال : وكيف نمتحنه ؟

أولا ترى أنه لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية إلا باتخاذ الوشاة ، واستعمال السعاية ، وتكثير عدد الرقباء ، والالتجاء إلى التجسس قبيح مضر .

قلت : نعم . هذا أمر صعب ، ولكن الأصعب منه تعليم الطالب نظريا وإهماله عملياً . وأين ؟ ! ! فى كلية دينية . على أن الخطوة الأولى فى هذا السبيل أن توجد المعلم . وعلى كلٍّ « فما لا يدرك كله لا يترك قله » .

والطريق : « هو شهادة الأستاذ » .

وإذا كان هذا الاقتراح لم يلق قبولا من أولى الأمر فى الكلية ، أو فى الأزهر فلا أقل من أن أوجه طلاب الأخلاق إلى أن يكونوا بالفعل فضلاء ، ففى الشئون العملية — كما يقول « أرسطوطاليس »[1] ليس الغرض الحقيقى هو العلم نظريا بالقواعد ، بل هو تطبيقها ، ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ما هى ، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها . فلو كانت الكتب والخطب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارا لاستحقت أن يطلبها كل الناس ، وأن تشترى بأغلى الأثمان ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء فى هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فى الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة وفياً بعهدها .

وألف باء الأخلاق العملية ، أو ألف باء السلوك الحسن أن تعرف نفسك بنفسك ، ولست أقصد أن تعرف كنهها وحقيقتها وإلا لو عرفت النفس على حقيقتها لا انحل كل شىء فى هذا الوجود . بل أقصد أن تعرف مواضع النقص فيها لتكملها ، أو أن تعرف حسناتها فتنميها ، وسيئاتها فتقلع عنها . فمعرفة النفس مبدأ كل علم وفضيلة ، ومعرفة النفس مفتاح معرفة الله والله هو الحق المبين .

ولهذا يدعوك الدين ، ويدعوك العلم وتدعوك الفلسفة إلى أن تعرف نفسك . يقول الكتاب العزيز : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وفى الأثر : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وكانت آية « سقراط »

(١) فيلسوف يونانى مشهور ولد ببلاد مقدونيا سنة ٣٨٤ ق م . وتوفى فى سنة ٣٢٢ وهو واضع علم المنطق .

التى يتغنى بها على الدوام هى تلك الحكمة المنقوشة على واجهة هيكل « ذلفى » « بأتينا : « اعرف نفسك بنفسك » . ومن هنا قيل : « إنه استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض » . أى أن « سقراط »[1] أول من وجه الفلاسفة من البحث فيما وراء الطبيعة إلى البحث فى الإنسان . وعلى هذا يعد هذا الفيلسوف مؤسس علم الأخلاق .

يجب أن نعرف كل الحقيقة عن أنفسنا فمن لم يعرفها لا يكاد يستبين ما فيه من المعايب والضرائب الذميمة ، ومن لم يعرف نفسه لم يقلع عما فيه من معايب بل لا يشعر بها فضلا عن أن يستقبحها للاقلاع عنها .

ولكن ما هو الطريق إلى أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ؟

جالينوس — الفيلسوف اليونانى الشهير — كتب فى هذا المعنى كتابا جعل رسمه «فى أن الأخيار ينتفعون بأعدائهم» فذكر فيه منافع صارت إليه من أجل عدو كان له . وكتب أيضا « فى تعرف الرجل عيوب نفسه » مقالة ذكر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى جوامعها نقتطف منها ما يلى نقلا عن رسائله الفلسفية التى جمعها وصححها مستر « كراوس [2]» قال :

« فينبغى أن يسند الرجل أمره فى هذا — فى تعرف عيوب نفسه — إلى رجل عاقل كثير اللزوم له والكون معه . ويسأله ويضرع إليه ويؤكد عليه أن يخبره بكل مايعرفه فيه من المعايب ، ويُعلِمه أن ذلك أحب الأشياء إليه وأوقعها عنده ، ويسأله أن لايستحييه فى ذلك ولا يجامله ، ويُعلِمه أنه متى

---

(١) ولد فى أتينا سنة ٤٧٠ ق م . من آب يحترف صناعة التماثيل وأم قابلة .

(٢) المؤلف رقم ٢٢ لسنة ١٩٣٩ مطبوعات كلية الآداب بجامعة القاهرة .

تساهل فى شىء منه فقد أساء إليه وغشّه واستوجب منه اللائمة عليه. فإذا أخذ الرجل المشرف يخبره ويعلمه ما فيه وما ظهر وبان له منه لم يظهر له اغتماما ولا استخزاء، بل يظهر له سروراً بما يستمع وتشوقا إلى ما لم يستمع منه. فإن رآه فى حال ما قد كتمه شيئاً استحياءً منه أو قصر فى العبارة عن تقبيح ذلك أو حَسَّنها لامه على ذلك وأظهر له اغتماما به، وأعلمه أنه لا يحب ذلك منه، ولا يريد إلا التصريح وإعلامه ما يراه على وجهه. فإن وجده فى حال أخرى قد زاد وأسرف فى تقبيح شىء رآه منه وتهجينه لم يغضبه ذلك، بل يحمده عليه ويظهر له بشراً وسروراً بما رآه منه. وينبغى أن يجدد سؤال هذا المشرف عليه حالا بعد حال. فإن الأخلاق والضرائب الردية قد تحدث بعد إن لم تكن. وينبغى أن يستخبر ويتحسس ما يقول فيه جيرانه ومعاملوه وإخوانه، وبماذا يمدحونه وبماذا يعيبونه، فإن الرجل إذا سلك فى هذا المعنى هذا المسلك لم يكد يخفى عليه شىء من عيوبه وإن قل وخفى. فإن اتفق له ووقع عدوٌّ ومنازع محب لإظهار مساويه ومعايبه لم يستدرك من قِبَله معرفة عيوبه، بل يأخذ فى سبيل الإقلاع عنها، إن كان ممن لنفسه عند نفسه مقدار، وممن يحب أن يكون خيراً فاضلا».

هذا هو الطريق لأن تعرف نفسك.

أما طريق السيرة الفاضلة فيرسمه الرازى أيضاً فى قوله: «إن الإنسان إذا لزم العدل والعفة وأقل من مماحكة الناس ومجاذبتهم سلم منهم على الأمر الأكثر، وإذا ضم إلى ذلك الإفضال عليهم والنصح والرحمة لهم أوتى منهم المحبة. وهاتان الخلّتان هما ثمرتا السيرة الفاضلة».

وللإنسان ناحيتان : ناحية جسمانية . وأخرى معنوية . فالجسمانية هى هذه الصورة الظاهرة المنظورة ، أو هى هذا الجسم الطويل العريض الذى تعتريه الأمراض المختلفة فيموت ويستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام .

والناحية المعنوية هى الصورة الباطنية التى بها يتشكل الجسم ويحيا ، أو هى النفس بما لها من أوصاف وخصائص .

وسر حياة الإنسان لا يتركز فى تلك الصورة الظاهرة المنظورة ، وإلا لكان هناك من الحيوانات ما هو أفضل من الإنسان . فالفيل مثلا أضخم منك جثة . والأرنب أسرع منك عدوا . والكلب أقوى منك شماً . وإنما سر الحياة يتركز فى هذه الصورة الباطنة المهيمنة على كل حركة يأتيها أى جزء من أجزاء تلك المادة الظاهرة . ومن هنا يتفاوت الناس بين خَيِّر وشِرِّير . وعلى هذه التفرقة يعتمد الخلق فى المقام الأول .

ولكل من هاتين الناحيتين — الجسمانية والمعنوية — دراسات تتصل بها . فعلماء « التشريح » وعلماء « وظائف الأعضاء » وعلماء « الكيمياء الحيوية » يختصون بالبحث فى تلك الناحية الجسمانية . كل من ناحية .

وعلماء النفس . والمنطق . والأخلاق وغيرهم ، يختصون بالبحث فى الصورة المعنوية . كل من ناحية : علم النفس يبحث فى الإنسان من ناحية ما هو عليه الآن . وعلم المنطق يبحث فى الإنسان من ناحية عصمة الذهن عن الخطأ فى التفكير . وعلم الأخلاق — وهو ما نحن بصدده — يبحث فى الإنسان من ناحية ما ينبغى أن يكون عليه .

فما هو هذا العلم ؟